التكرار عند جبران خليل جبران

الأستاذ: أحمد العياضي
قسم اللغة العربية و آدابها
جامعة فرحات عباس – سطيف

ملخـــص:

إن التكرار عند "جبران" يمثل ملمحا بارزا و مظهرا من مظاهر الأسلوبية، حيث أمكن الحديث عن ظاهرة تكرار الكلمة، و ظاهرة تكرار العبارة، و قد قمت بتحليل تلك الظواهر اللغوية، و بيان دلالاتها و إيحاءاتها، و الوصل إلى الطريقة، التي بنى "جبران" عليها تلك الظواهر، و مدى تأثير تلك الظواهر على المتلقي و إنفعاله. و ليس يخفى أنه لا يمكن الفصل بين الأسلوب أو اللغة و الشخصية المنجزة لهذا الأسلوب.

فآلية التعبير عن الشخصية تتراكم لا شعوريا في نفس شخص المبدع، الذي كثيرا ما يظهر ذلك التراكم في عملية التكرار المستمر لكثير من الكلمات و العبارات، التي لها نصيب أوفر في بنية اللاشعور عند المبدع.

Résumé:

La répétition représente une caractéristique importante et une manifestation stylistique , puisqu'on parle de la redondance du mot et de la phrase .

Après analyse de ce phénomène linguistique on a pu découvrir les significations , les connotations et les dénotations et ce en démontant leurs influence sur les émotions du récepteur . Donc, on a affaire au subconscient de l'auteur qui s'exprime par la répétition.

يعد التكرار ملمحا بارزا ومظهرا من مظاهر الأسلوبية في الأعمال الإبداعية، وهو يقوم بدور رئيسي في عملية نسيج النص الأدبي فهو «الملمح الأسلوبي الأكثر بروزا لتلاحم النص فهو يدخل في نسيجه لحمة وسدى، ويشد أطرافه إلى بعض، ويعطي شكله نوعا من الحركة، يدور فيها الكلام على نفسه ويتكرر دون أن يعيد معناه»[1]

وظاهرة التكرار في النص المنجز، تعمل على استحضار الطاقات الانفعالية والتأثيرية لدى الشاعر، وهي بدورها تقوم على إثارة المتلقي وانفعاله. ولذلك «يعد التكرار من أهم الأساليب التي تؤدي إلى وظيفة تعبيرية وإيحائية في النص، إذ أنه يوحي بشكل أولي بسيطرة فكرة النص المكرر على فكرة الباث أو على شعوره».[2]

و من ذلك أيضا «فإنه متى كثر تكرار أمر تولد تيار فكري عاطفي، يتلوه ذلك المؤثر العظيم في الأفراد والجماعات وهو العدوى، إذ لا يكفي لتحول الانفعال إلى عاطفة، أن يحدث مرة واحدة، ولكن لا بد لحصول ذلك أن يتكرر حدوثه».[3]

ومن هنا نجد أن التكرار ظاهرة نفسية مرتبطة ارتباطا وثيقا بعملية اللاشعور عند الشاعر فتكرار كلمة أو جملة أو عبارة ما، هو إلا سلسلة من التداعيات التي تلحق بالشاعر في أثناء عملية الإبداع، فتنقله من حدث إلى حدث، أو من نص إلى نص، فتتولد عنه عملية التداعي، التي تخرجه من الوعي إلى اللاوعي، وخروجه هذا يفقده السيطرة على العملية الإبداعية، ويتحول إلى كتلة من الانفعالات والمؤثرات التي يستجيب لها النص بظاهرة التكرار التي كتبت لا شعوريا، وهذه الحالة هي ما يرتضيها الشاعر ويطلبها حثيثا، وذلك ليصل إلى المتلقي، أو إلى قارئ لا شعوريا، يصل بتأثره وانفعالاته إلى درجة الشاعر، وكما هو مقرر في علم النفس أن «المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان ودوافعها، ولا شك أن تكرار القول لا يقل تأثيرا على إثارة الانفعال وتكوين العواطف من التكرار الفعل، بل إن تكرار في القول مما يدفع إلى الفعل.[4]

ومن ظواهر التكرار عند جبران خليل جبران نذكر:

أولا: تكرار الاسم الظاهر:

إن مثل هذا النوع من التكرار له ميزة خاصة عند "جبران"، وذلك لكثرة وصفه للأشياء. فهو لا يقدم شيء في الوجود، إلا ويقدم له وصفا كافيا، وقد يطول به الوصف إلى أكثر من صفة للشيء الواحد، يقول جبران:

سلام أيتها الحياة
سلام أيتها اليقظة
سلام أيتها الرؤيا
سلام أيها النهار الغامر بنورك ظلمة الأرض
سلام أيها الليل المظهر بظلمتك أنوار السماء
سلام أيتها الفصول
سلام أيها الربيع المعيد شبيبة الأرض
سلام أيها الصيف المذيع مجد الشمس
سلام أيها الخريف الواهب ثمار الأتعاب وغلة الأعمال
سلام يا أيها الشتاء المرجع بثوراتك عزم الطبيعة[5]

إن الملاحظ في النص هو الإلحاح من قبل جبران على تكرار كلمة «السلام» وذلك لما تحمله من دلالات عظيمة، شجعت على تكرارها في بداية كل عبارة تدخل في وعي "جبران" الذي جعل من النص كتلة مترابطة ومنسجمة بتكراره لكلمة "سلام"، وهي سلسلة من الاستجابات اللفظية التي تجعل من النص قوة فاعلة ومؤثرة في المتلقي، الذي حتما سيتأثر وينفعل بدرجة عالية، تنسجم مع رؤى وتطلعات الشاعر(جبران).

إن كلمة السلام في النص، تتجدد وتتطور مع تجدد وتطور الأحداث والأزمنة، وبالتالي فإن دلالة السلام في حقيقتها متطورة متغيرة بتغير الأحوال والصفات.

و"السلام" في واقعه خلق إنساني يدعو له "جبران"، في كل مكان وزمان، فهو

يؤمن بذلك السلام الذي يستحق كل من هو في هذا الوجود مجردا كان أم محسوسا، ولشدة كبته لما يتمنى ويأمل في إحلال السلام، فإنه حمل تلك الكلمة إيحاءات ودلالات خرجت عن مألوفها ومعناها الإنساني، وبذلك أصبحت كلمة "السلام" تحمل خصوصية في دلالتها لدى "جبران" والمتلقي، التي أصبحت بدورها فاعلة في بنيتها السياقية من تلاحمها بالبنية النصية. فالنص المنجز يشكل جزءا من ذاتية "جبران" فهو ناقم على الواقع المعيش، الذي يمثل صورة من صور الظلم والاستبداد والقهر وعدم الأمن، ولذلك نراه يناشد ويطلب بحرارة السلام الحقيقي الكائن في الوجود الأبدي ليكون سلاما أبديا، يخلو من القهر والقمع «فلقد كان جبران إنسانا يحب كل إنسان على وجه الأرض، خارجا عن حدود الدين والجنس والإقليم، لأن كل إنسان هو أخوه في الرابطة الإنسانية الكبرى، أو هو صورة في محيط الوجود الواحد الذي لا ينفصل»[6]. لذا نجد أن تكرار كلمة "سلام" كانت تكرارا لا شعوريا عند "جبران" لأنها تابعة في لا شعوره الذي يمثل شيئا من واقعه المعيش.

ومن الأسماء التي تكررت لا شعوريا عند «جبران» كلمة «العبودية» حيث يقول:

والعبودية الخرساء هي التي تعلق أيام الرجال بأذيال الزوجة...

والعبودية الصماء، وهي التي تكره الأفراد على اتباع مشارب محيطهم...

والعبودية العرجاء، وهي التي تضع رقاب الأشداء تحت سيطرة المحتالين...

والعبودية الشمطاء، وهي التي تهبط بأرواح الأطفال من الفضاء...

والعبودية الرقطاء، وهي التي تبتاع الأشياء بغير أثمانها...

والعبودية العوجاء، وهي التي تحرك بالخوف ألسنة...

والعبودية الحدباء، وهي التي تقود قوم بشرائع قوما آخرين...

والعبودية الجرباء هي التي تتوج أبناء الملوك ملوكا...

والعبودية السوداء، وهي التي تسم بالعار أبناء المجرمين الأبرياء...[7]

إن العبودية كسلوك إنساني مرفوض بكل أشكاله وأنواعه فتكرارها في ذلك النص لم يأت عبثا وحشوا، والنص ورد في مقالة بعنوان "العبودية"، فبعد أن يقدم «جبران»

أشكال العبودية، في صورة تمتد عبر التاريخ، وفي كل الأمكنة يقوم بذكر تلك "العبودية" (خرساء، صماء، ...إلخ)، وتكرار تلك الكلمة في حقيقتها يحمل المتلقي على الانفعال تجاه تلك الممارسات الواقعية للإنسان.

إن النسق اللغوي قائم على تكرار "العبودية" التي تشكل بناء دلاليا في كل حالة تكرار لها فتتطور دلالتها بتغير صفتها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى بتعريف العبودية الموصوفة، (خرساء صماء، رقطاء، عرجاء،...إلخ)، فعملية الانتقال من العبودية الأولى إلى العبودية الثانية، ناتجة عن انتهاء التعريف بالعبودية التي تمثل حالة الوعي التام عند "جبران" وكذلك في الانتقال إلى العبودية الثالثة، فالرابعة..إلخ، فنسيج النص ينسج بطريقة اللاشعور اللغوي، الذي ينتج عنه ظاهرة التكرار ومن ثم فهو يحمل النص من دلالات واعية إلى دلالات غير واعية أو لا شعورية.

ومن ذلك التكرار أيضا، يقول جبران:

تنبثق الأرض من الأرض كرها وقسرا
ثم تسير الأرض فوق الأرض تيها وكبرا
وتقيم الأرض من الأرض القصور والبروج والهياكل
وتنشء الأرض في الأرض الأساطير والتعاليم والشرائع
ثم تنادي الأرض قائلة للأرض: أنا الرحم وأنا القبر وسأبقى
رحما وقبرا حتى تضمحل الكواكب وتتحول الشمس إلى رماد[8]

ونلاحظ من خلال النص أن الأرض تكررت مرتين في كل سطر من أسطر النص، وذلك للفرق الدلالي التي تحمله كلمة "الأرض" الأولى في كل سطر، عن الأرض الثانية في كل سطر أيضا، وهذا التكرار يشكل وحدة لغوية متناسقة في لحمة النص اللغوي ونسيجه، ويحمل أيضا في طياته الانفعالية التي تسيطر على التكرار الثاني للأرض من جهة، والخروج من سلطة وعيه في تكراره للأرض الأولى من جهة أخرى."فالتكرار هو السبيل الوحيد لربط الانفعال به، وتركز حوله إلى جانب ما يثيره من انفعالات أخرى تدخل في تركيب العاطفة، وإن عاطفة قوية لكافية لتهديد نشاط الفرد واتجاهه في الحياة."[9]

إن خروج "جبران" من سلطة وعيه بتكراره "الأرض" الأولى، مرتبط بدلالة النص ككل، المتمثلة بدلالة الأرض الثانية، وهي تمثل فكرة ذاتية الإله، وهذه الفكرة لم يؤمن بها "جبران".

إذ يرى أنها خلق من قبل البشر، وهي نقيض الفكرة التي يؤمن بها "ولا غرو فجبران أول أديب عربي في العصر الحديث جهر بإيمانه المطلق بوحدانية الوجود"[10]

وتعني أن هذا الوجود المرئي هو جزء من الوجود الكلي المتمثل بصورة إله.

وهكذا فإن تكرار الاسم "الظاهر" في أعمال "جبران" يشكل ظاهرة أسلوبية تستحق الوقوف عليها، وعدم التسرع في فهمها وإدراكها، إذ تحمل في داخلها معاني وأفكار وانفعالات، لا يمكن استيعابها بمعزل عن بيئة العقل الجبراني.

ثانيا تكرار الضمير:

يشكل الضمير المنفصل ملمحا في اللغة الجبرانية، فتكرار الضائر المنفصلة بأنواعها، للمتكلمين أو للمخاطبين أو للغيبة، لا يخرج عن فلسفة الوجود الحقيقي للذات البشرية، وهي الفلسفة التي ما انفكت تدفع "جبران" بعقله ووجدانه وإيمانه في كل كلمة كتبها أو قالها. وتكرار الضمير عند جبران يمثل صورة الذات في وجودها الذي "يؤمن به" وتبحث عنه بعيدا عن كل ما هو معيش وواقع، يقول جبران:

أنا مثلك أيها الليل، وهل يحسبني الناس مفاخرا إذ تشبهت بك
وهم إذ تفاخروا يتشبهون بالنار
أنا مثلك وكلانا متهم بما ليس فيه
أنا مثلك بميولي وأحلامي وخلقي وأخلاقي
أنا مثلك وإن لم يتوجني الماء بغيومه الذهبية
أنا مثلك وإن لم أكن ممنطقا بالمجرة
أنا مثلك مسترسل هادئ مضطرب
أنا مثلك أيها الليل ولن يأتي صباحي حتى ينتهي أجلي[11]

يحمل الضمير "أنا" غالبا دلالة الأنانية والكبرياء –وهو كذلك فعلا- ولكن هذا الضمير حمله "جبران" دلالة مختلفة تماما عما هو متوقع، وهذا الأسلوب الذي يكسب العنصر المكرر دلالات وايحاءات لم تكن متوقعة من قبل المتلقي، فإنه يفاجئ المتلقي ويكسبه انفعالا وتأثيرا، "والمفاجأة تستند أساسا إلى تغذية التوقع و تميته، ثم إخراج البنية عن مسارها المتوقع، وخلخلة بنية التوقعات المتشكلة في ذهن المتلقي"[12] وإخراج البنية تلك عن مسارها، سيؤدي حتما إلى هدم بنية الدلالات المتوقعة في ذهن المتلقي أيضا، ومن ثمة فإنه سيتحول إلى متلقي لا شعوري، لسلسة الدلالات الخارجة عن مسارها الطبيعي في بنية النص المنسوج باللاشعور اللغوي.

ومن هنا فإن الدلالات الناتجة عن تكرار العنصر اللغوي، هي دلالات متطورة مستحدثة، لم يعهدها المتلقي من قبل، والدلالات تلك هي ما ينشدها "جبران" في تكراره الضمير "أنا" وذلك ليصبح المتلقي مترددا للأنا مؤمنا بها بطريقة لا شعورية، وفي المقابل فإن "الأنا" الأنانية ليس لها وجود أصلا.

والأنا الجبرانية التي تتكرر عنده بشكل واضح، تحمل حقيقة الذات التي وجدت من أجلها أنا الحب والرحمة والجمال و...إلخ، وكل المعاني والقيم الإنسانية التي تدعو إليها الإنسانية جمعاء "أنا الخير"التي تزرع في كل شبر في الوجود البشري كل سعادة ومحبة وعطاء، وهذه المعاني التي فجرتها "الأنا بتكرارها هي صورة من الصور الذهنية الجبرانية القابعة في أعماق نفسه، فجبران سخر كل مواهبه العالية لقيادة البشرية إلى الجمال والخير والحق، وإلى الحب والسعادة والحرية".[13]

ومن أمثلة الأنا تلك يقول جبران:

أنا دليل الحب
أنا خمرة النفس
أنا مأكل القلب
أنا وردة أفتح قلبي عند فتوة النهار
أنا بيت السعادة

أنا مبدأ الراحة
أنا ابتسامة لطيفة على شفتي غادة
أنا نظرة من عين طفل تراها الأم الحنون.[14]

والتكرار الكثيف للضمير "أنا" دليل على تكثيف المعنى المتصعد في ذلك الضمير، فالباحث "يلجأ إلى هذا التكرار للمحافظة على هذا التكثيف المتصعد، إما في مشاهد يطرح حمولته النفسية أو أخرى تدور على فكرة يريد المرسل تأكيدها، فيصر عليها حتى وكأنه لا يرغب بالانتقال إلى غيرها".[15] وهذا ما كان جليا في تكرار الأنا عند جبران.

ومن الضمائر التي تزداد بروزا في تكرارها عند جبران الضمير"هم"، الذي يشكل دلالتين نفسيتين تعبران عن حقيقة البنية الذهنية عند"جبران" حول واقعه المعيش، والدالتان قائمتان على مرجعية الضمير المشار إليهما من خلاله، وهذه المرجعية مرتبطة بالمدلول الذهني المختزن عند "جبران"، وفي هذا السياق نرى أن مدلول الخطاب، يرتبط بمرجعه كارتباط العلة بالمعلول، أي وجودا وعدما، وبالتالي فإن مدلول الضمير في الذهن، لا يمكن له أن يكون بمنأى عن مرجعية هذا الضمير وحقيقة ما يشير إليه.

يقول جبران:

ومن هم يا ترى أبناء لبنانكم؟
ألا فانظروا هنيهة لأريكم حقيقتهم
هم الذين ولدت أرواحهم في مستشفيات الغربيين
هم الذين استيقظت عقولهم في حضن طامع يمثل دور أريحي.
هم تلك القضبان اللينة التي تميل إلى اليمين وإلى اليسار
هم الذين يسيرون أمام الجنازة مزمرين راقصين....
هم الذين لا يعرفون المجاعة إلا إذا كانت في جيوبهم....[16]

إن تكرار الضمير"هم" في النص شكل دلالة الفئة التي ينظر إليها "جبران" بعين الحقد والكراهية وذلك لما تسببه من قهر واستبدال، وبما تمارسه من أعمال وحشية، ضد الإنسانية وتحقيق الذات، وهذا السبب هو الدافع الرئيسي الذي جعل "جبران" يتمرد على

تلك الفئة المتعسفة في واقعه المعيشي فالواقع لهذه الجماعة كون البنية الذهنية عند جبران تجاه تلك الفئة، وهذا التكرار الكثيف للضمير "هم" تجعل من المتلقي على درجة عالية من الانتباه واليقظة حول هذه الجماعة، والانتقال من عنصر إلى عنصر سيدفع بالمتلقي إلى الإثارة ليشارك الباث "جبران" في بنائه الذهني والنفسي، ولا أرى في هذا التكرار الكثيف والممتد والمشحون بطاقة عالية من الانفعالات والأحاسيس إلا عملية نقل للصورة الذهنية عند "جبران" إلى ذهنية المتلقي وذلك بواسطة الأداء اللغوي وبذلك يتحقق التواصل بين "جبران" والمتلقي بالالتقاء في النص الأدبي، بعد مشاركة الاثنين بانفعالاتهم ومشاعرهم، التي تحققت بعملية الإبداع من جهة "جبران" الباث، المتمثلة بتكرار «هم» وبعملية التلقي من جهة القارئ.

إن "جبران" نجده دائما يتكلم باسم الإنسانية، وهذه الإنسانية أصبحت شغله الشاغل، حتى و كأنها محور لأفكاره ومشاعره وهمومه وآلامه، فكثيرا ما يتكلم بصيغة الجمع، حرصا منه على حبه للقيم النبيلة والدفاع عنها "فرسالته هي أن يفتح عيون الناس على الجمال والحق، ويقودهم إلى ينابيع الحب والحرية»[17]، وهذه الفكرة الراسخة في نفس «جبران» لم يجد لها تعبيرا صادقا لانفعاله وطاقته النفسية المختزنة إلا بالتكرار «تكرار لفظة ما، أو عبارة ما، يوحي بشكل أولي بسيطرة هذا العنصر المكرر والحاحه على فكر الكاتب ومشاعره»[18]، وهذا النوع من التكرار "ينشأ عن حالة شعورية شديدة التكثيف يرزخ المبدع تحتها ولا يملك لنفسه تحولا عنها، إذ تبقى ملحة عليه ولا تفارقه، فتظهر مكررة فيما يقول، ويعتمد استمرار ظهورها على بقاء الحالة الشعورية كمحفز للتكرار»[19]

ومن أنماط هذا التكرار يقول جبران مخاطبا الأرض

ما أشد حنانك على أبنائك المنصرفين عن حقيقتهم إلى أوهامهم الضائعين

بين ما بلغوا إليه وما قصروا عنه

نحن نضج وأنت تضحكين

نحن نذهب وأنت تكفرين

نحن نجذف وأنت تباركين

نحن ننجس وأنت تقدسين[20]

إن تكرار الضمير «نحن» يحمل دلالة شعورية ما فتئت تدور في وجدان "جبران" وعقله فالضمير"نحن" خرج عن دلالته الخاصة، وهي التعظيم والتفخيم، وحمل دلالة جديدة تجعل من المتلقي منفعلا ومتأثرا، فهذا التكرار المنسوخ بسياقه اللغوي جعل من الضمير"نحن" معنى عظيما وهو الإنسانية التي تشكلت داخل السياق اللغوي، فأكسب العنصر المكرر تلك الدلالة الجديدة، وبالتالي فإنه لا يمكن لنا أن ننظر إلى التكرار خارجا عن سياقه اللغوي "فالتكرار كأية أداء لغوية يقيس جانبا من الموقف الشعوري والانفعالي، وهذا الموقف تؤديه ظاهرة أسلوبية تشكل لبنة من لبنات العمل الأدبي ولذلك ينبغي على المرء ألا ينظر للتكرار خارج نطاق السياق"[21]

وهذا الأسلوب من التكرار مرتبط أشد الارتباط بالعملية النفسية لدى المبدع وبالحالة اللاشعورية عنده،"فعملية الالتفات إلى الجانب النفسي في أسلوب التكرار عملية مهمة، فلو اختلف الموقف اللاشعوري أو الموقف النفسي لأختلف الأسلوب"[22]

ومن هنا فيما أرى أن تكرار الضمير عند "جبران" قد حمل دلالات وأبعاد لم تكن من قبل، ولا ريب أن هذا التلاعب الدلالي بالكلمة، جعل لها قيمة أسلوبية، لم تكن لتحظى بها لو تكررت في غير هذا السياق.

ثالثا/ تكرار الفعل:

للفعل عند "جبران" ميزة خاصة، فهو يشع بالحركة والانفعال والرؤى، وقد حمل بدلالات وإيحاءات أخرجته عن دائرة الحدث والزمن الحقيقيين، فلم يكن فعلا حقيقيا بقدر ما هو معنى متأصل في رؤية جبران حول ما يرى وما يسمع، ولذلك نجده يكرر أفعالا بطريقة إلحاحية، وكأنه مجبر على ذلك، بل وكأنه خارج سلطة هذا التكرار، الذي يبدو واضحا جليا لكل من قرأ "جبران" ولو لأول مرة ومن الأفعال التي تكررت عند "جبران" بوضوح الفعل «رأيت» حيث يقول جبران:

رأيت الجموع ساجدة على صدر الطبيعة...

رأيت الشيوخ جالسين بظل أشجار الحور

رأيت المدينة قد اندثرت ولم يبق من آثارها غير طلل
رأيت الفتيان يوقعون على القيثارة
رأيت الكهول يحصدون الزرع والنساء يحملن الأغمار
رأيت الألفة مستحكمة بين لإنسان والمخلوقات[23]

إن تكرار الفعل «رأيت» جاء تأكيدا على حقيقة قابعة في خيال "جبران" التي أصبحت جزءا من أفكاره ورؤاه، التي ما انفك يفكر بها، ويحلم هي صورة من صور العالم تسوده المحبة والرحمة والإخاء، فالفعل "رأيت" ببنيته يدل على الزمن الماضي، أي كأن حدث الرؤيا قد حدث وانتهى، فهذه الدلالة من حيث البنية لهذا جاءت بمعزل عن تكراره في الأنساق اللغوية.

وأما ورود الفعل متكررا يحمل نسقا لغويا خاصا، يخرج دلالة الفعل عن دلالته الآنفة الذكر، لم يعد يرتبط بالماضي اطلاقا، ولم يعد يرتبط بالحدث، وهو الرؤيا بواسطة حاسة البصر أو العين، إن الفعل"رأيت" في النص هو صورة متخيلة لها عالمها وأنظمتها، ولا وجود لها في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، بل وجودها مرسوم في ذهنية «جبران» الذي أكد على هذه الصورة بتكراره "رأيت" ليشعر المتلقي أنها صورة حقيقية واقعية لها وجودها، والدليل أنني رأيتها في زمن حدث فيه هذا وانتهى، وبهذا التكرار يشترك المتلقي مع "جبران"، حزنا وأملا وتأثيرا.

ومن أشكال التكرار التي عبر بها "جبران" عن واقعه المؤلم، الذي يفتقر إلى مقومات القيم الإنسانية السمحة تكراره لفعل "مات" وهذا الفعل يحمل طاقة انفعالية ذات درجة عالية من التأثير والانفعال، يقول جبران:

مات أهلي وأنا قيد الحياة أندب أهلي في وحدتي وانفرادي
مات أحبابي وقد أصبحت حياتي بعدهم مصابي
مات أهلي وأحبائي وغمرت الدموع والدماء هضبات بلادي
مات أهلي جائعين

مات أهلي أذل ميتة.[24]

إن الإصرار على تكرار الفعل "مات" من قبل "جبران" لم يكن عبثا، ولم يحمل دلالة الموت الحقيقي، فقد حمل دلالات وايحاءات جديدة، وهذه الدلالات تثير المتلقي وتجعل منه قارئا منفعلا، وذلك تجاه ما يلاقيه أهله من ذل وقهر وجوع، فأهل "جبران" وأحباؤه لم يفارقوا الحياة، بل هم أحياء يتنفسون ويتحركون، ولكنهم كالأموات بذلهم وتعاستهم، فكأن "الموت" في النص يحمل دلالة مناقضة للدلالة التي وضع لها، وهي دلالة الحياة، فكأنما "جبران" يريد أن يقول، إن أهلي وأحبائي هم الأحياء وما سواهم من المتعسفين الطاغين هم الأموات، أموات بظلمهم وقسوتهم وقهرهم وجشعهم.

فتكرار الفعل "مات" بدلالته الجديدة، هو تكرار واستمرارية لحياة أهله وأحبائه، وهذه الدلالة لم تأت صريحة إلا لتجعل المتلقي يعايش كبت"جبران" الذي يرى الموت حياة والحياة موتا، بدلالتها المكتسبة من النص، وهذا الأسلوب المثير يشحن المتلقي بالانفعالات والأحاسيس الكامنة عند "جبران".

ومن هنا فإن التكرار للفعل "مات" جاء ليعبر عن حالة شعورية مكبوتة، وذلك نتيجة ما يعانيه "جبران" وأهله وأحباؤه من الفقراء المحرومين، وهذا الوجود المؤلم والمحزن الذي يسوده الأشرار من الناس هو الذي جعل "جبران" يلح بالطلب للوحدة والعزلة وترك الناس وحياتهم، حيث يقول جبران:

طلبت الوحدة لكي لا أرى أوجه الرجال...
طلبت الانفراد لكي لا ألتقي النساء اللواتي...
طلبت الانفراد لكي لا أجالس ذوي نصف المعرفة...
طلبت الخلوة لأنني مللت مجاملة الخشن...
طلبت الخلوة لأن نفسي بقيت من معاشرة المتمولين...
طلبت الوحدة لأن في الوحدة حياة للروح والفكر والقلب والجسد...
طلبت الجبال لأن فيها يقظة الربيع وأشواق الصيف...[25]

وبهذا فإن تكرار الفعل «طلبت» من قبل "جبران"، إصرار منه على أهمية ما يطلبه وما يتمناه وهي الوحدة والخلوة، بعيدا عن واقعه المعيش، الذي يلاقي به أشد أنواع القهر والاستبداد والتعسف ويرى فيه كل ما هو مناف للقيم الإنسانية الخالدة، والحب والحق والخير والجمال فالناس عنده أشبه بعالم فوضوي، يحكمه قانون القوة والاستبداد فالقوي يأكل الضعيف، هذا هو واقع "جبران" وهذا هو واقع أهله من المستضعفين في الأرض، فتكراره للفعل "طلبت" كان نتيجة لفكرة يؤمن بها "جبران" للتخلص مما هو عليه، ففكرة البعد عن الناس والعزلة والانطوائية، أو فكرة الوحدانية تتناسب تناسبا عكسيا في القرب والبعد من عالم الروحانيات فكلما ابتعد الإنسان عن الناس، اقترب أكثر إلى الروحانيات، وهكذا ولأهمية هذه الفكرة وسيطرتها التامة على عقل «جبران»، تكرر فعل الطلب لتشكل بذلك ظاهرة أسلوبية، تجعل من المتلقي متلقيا لا سلطة له في استقبال الفكرة والانفعال معها وحتى الإيمان بها أيضا، ومن الخليق بالذكر أن تكرار الفعل عند «جبران» كما هو بين وجلي، قد تميز بزمنه الماضي، وهذا الاختيار للزمن النفسي للفعل، دليل على ظاهرة نفسية وفكرية عند المبدع، فهو لم يأت به عبثا، بل هو المعطيات والانفعالات والأحاسيس التي تشكلت في ذهنية المبدع عبر الزمن، فتعبيره بالزمن الماضي هو الزمن الحقيقي المتكون في اللاشعور، فهو ليس حاضرا ولا مستقبلا، بل إن الحدث النفسي والفكري قد تم وانتهى، لقد تمنى وانتهى، وفكر وانتهى، و تألم و انتهى وهكذا.

وبذلك فإن التكرار سيؤدي حتما إلى دلالات وايحاءات جديدة، لم يكن للفعل أن يحملها لا زمنا ولا حدثا، عن الزمن والحدث الواقعي للأشياء والبنية اللاشعورية، هي الدافع الأساسي في بناء النسيج اللغوي للنص، المتمثل بالتكرار، وهذا الأخير هو المسؤول عن انتاج الدلالات والإيحاءات الجديدة " فالتكرار يقوم بوظيفة أساسية في انتاج خط المعنى والايحاء به، كما يقوم بتوفير مفتاح (الفكرة أو الشعور) المتسلط على الشاعر، ويضعه في يد الدارس اللغوي، ويعد هذا المفتاح أحد الأضواء اللاشعورية التي تكشف عن أعماق الشاعر"[26]

رابعا/ تكرار العبارة:

تعد ظاهرة تكرار العبارة عند "جبران" من الظواهر الأسلوبية الأكثر بروزا واستخداما، ويمتد تكرار العبارة عند جبران على صعيد الأعمال –في الغالب الأعم- وقد تظهر العبارة عنده نتيجة لرؤيته الخاصة تجاه نفسه، فهو كثيرا ما يخاطب الناس بلغة الأنبياء أو الحكماء، وبذلك نجده يكرر عبارات دينية، يكثر تكرارها في الكتب المقدسة، ومن أمثلة ذلك التكرار تكرار عبارة "يا أيها الذين" وهي عبارة قرآنية لها دلالتها الدينية والنفسية، يقول جبران:

يا أيها الذين حاروا في سبيل الأديان...
ويا أيها الذين ضاعوا في ليل النقولات...
تهللوا يا أيها الذين أنزلت عليهم آيات الجمال...[27]

إن تكرار هذه العبارة "يا أيها الذين" توحي إلى درجة عالية على قيمة المخاطب، لما اكتسبته تلك العبارة من دلالات عظيمة لورودها في القرآن الكريم، وعلى قيمة الخطاب المشار إليه، الذي يدعو المخاطب لأن ينتبه إليه، ويسير مع المخاطب في كل ما يدعو إليه ويأمر به، وبالتالي فإن المتلقي سيتأثر حتما بالخطاب الذي يزداد أهمية مع كل عبارة مكررة على رأس كل فكرة من أفكار الخطاب.

ومن العبارات المكررة عند جبران عبارة "رحماك يا نفس"، فهذه العبارة تحمل في تكرارها معاناة "جبران" تجاه التناقض الواقع بين نفسه وجسده، يقول جبران:

رحماك يا نفس ! فقد حملتني من الحب ما لا أطيقه
رحماك يا نفس ! فقد أريتني السعادة عن بعد شاسع
رحماك يا نفس ! فقد أبنت لي الجمال وأخفيته
رحماك يا نفس رحماك[28]

ومن هذا التكرار نجد أن الطاقة الانفعالية لدى المبدع عالية جدا ومؤثرة عليه، فهو لم يأت بتلك العبارة مع إصراره على تكرارها بحالة شعورية، لم يستطع أن يتخلص منها بقصد أو بدون قصد فاللاشعور اللغوي نسج على ذلك النسق بسلطته التي تفرض على

المبدع أن يخضع لها، ولا ننسى كذلك أنها تشكل ذات المبدع ووجوده في نفسه ومشاعره وأفكاره وفي كل ما يتعلق به ككائن بشري يمثل شخصيته في هذا الوجود.

ومن الأمثلة على العبارات المتكررة عند "جبران" أيضا لا تكرار عبارة "في ظلام الليل" فهو يقول:

في ظلام الليل ينادي بعضنا بعضا
في ظلام الليل نصرخ ونستغيث
في ظلام الليل يسير الموت ونحن نتبعه
في ظلام الليل ينادي الأخ أخاه والأب أبناءه
في ظلام الليل وليس لظلام الليل نهاية
في ظلام الليل ينادي الأخ أخاه والأم ابنها...[29]

في ذلك التكرار تأكيد على ما في نفس "جبران" من ألم وحسرة وشفقة على أهله وشعبه لما يلقونه من مجاعة قاسية، يحصد الموت فيها العشرات والمئات، وتكراره لتلك العبارة "في ظلام الليل" راجع إلى دلالة الظلام والليل، فهاتان الكلمتان تحملان دلالات تملأ النفس رعبا وقلقا وخوفا، وتقدم صورة موحشة تقشعر لها الأبدان، ومع كل تكرار لعبارة "في ظلام الليل" يزداد المتلقي تأثيرا وانفعالا لما يجده من حقيقة ما تؤكده هذه العبارة والعبارة على حقيقة ما تقدمه في ذلك السياق، فإنها تشكل لبنة من لبنات النفس الجبرانية، التي لا ترى في هذا الوجود إلا صورة معتمة مظلمة يستوي فيها الخبيث والطيب، ولهذا فإن تكرار تلك العبارة ناتج عن حالة شعورية خارجة عن نطاق سلطة الوعي الجبراني، ولا شك أن جبران كان يرى نفسه غريبا في هذا الوجود، فهو لا يمثل له شيئا، ولا يتفق معه في شيء، لتناقضه مع أفكاره ومشاعره ووجدانه، فالوجود الواقعي بالنسبة له يشكل أسوأ حالاته روحا وجسدا وعقلا، فلا غرو إذا ، أن نجد جبران يكرر عبارة "أنا غريب في العالم"[30].

وبناء على ما تقدم أن العبارة عند «جبران» تشكل بنية أساسية في بنية النص الأدبي، وهذه البنية التي ينسج بها النص: عبارة عن بنية داخلية في النفس الجبرانية، فلا

يمكن لنا أن نتصور عملا لغويا لجبران بمعزل عن بنيته النفسية و الفكرية و الوجودية، "فأسلوب جبران نتيجة طبيعية لمواهبه و صورة لشخصيته، و إذا لا يمكن أن يكون صادقا قويا ممتازا إلا إذا استمده من نفسه وصاغه بلغته وعبارته، والسبب في ذلك أن لكل أسلوب صورة خاصة بصاحبه، تبين طريقة تفكيره وكيفية نظره إلى الأشياء وتفسيره لها وطبيعة انفعالاته، فالذاتية هي أساس تكوين الأسلوب"[31] وليس يخفى أنه لا يمكن الفصل بين الأسلوب أو اللغة والشخصية المنجزة لهذا الأسلوب"فالتعبير عن الشخصية ناتج عن وصف تجاربها ونزعاتها ومزاجها وطريقة اتصالها بالحياة."[32]

تعد أعمال "جبران خليل جبران" من الأعمال التي تحمل خصوصية تفتح المجال أمام الدراسات الأسلوبية، للقيام بتحليل تلك الخصوصيات، و إبراز أهم الظواهر و السمات التي تميزت بها تلك الأعمال. و يعد التكرار ظاهرة بارزة و جلية عند "جبران"، ناتجة عن البنية اللاشعورية عنده، فبناء النسق التكراري في النص الأدبي خارج عن دائرة الوعي، فجبران يكرر ألفاظا و عبارات، تقبع في عقله و شعوره، و بذلك فإن التكرار سيؤدي إلى كشف المستور أو المقبوع خلف الوعي، و هو كذلك يزيد من التأكيد و الإلحاح على فكرة ما، أو شعور ما، كما يكشف عن الدلالات و الإيحاءات التي بني عليها النص للتعبير عن فكر "جبران" و ذاته.

والظاهرة الأسلوبية للتكرار، تختلف باختلاف اللاشعور لدى المبدع، فدلالات الألفاظ و العبارات متباينة بتباين البنيات التركيبية لها في العقل الباطن، الذي يشكل البنية الأساس لترابط النصوص و الجمل في العملية الإبداعية الواعية، التي تنسج بطريقة الطاقة الوعية للنص، و طريقة التداعيات الناتجة عن تلك الطاقة.

الهوامـــش و المراجـــع

1. عياش منذر، مقالات في الأسلوبية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1990، ص 88.
2. أبو مراد فتحي، شعر أمل دنقل، دراسة أسلوبية، د ط، جامعة البرموك، الأردن 2004، ص 96
3. قاسم محمد، التكرار في القرآن الكريم، د ط، جامعة اليرموك، 1998، ص 10
4. المرجع نفسه، ص11.
5. جبران خليل جبران، الأعمال الكاملة، ط3، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، 2002، ص 206.
6. عيسى الناعوري، أدب المهجر، د ط، دار المعارف، القاهرة 1977، ص 344.
7. الأعمال الكاملة، ص240.
8. الأعمال الكاملة، ص 347.
9. قاسم محمد، التكرار في القرآن الكريم، ص 101.
10. عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص 344.
11. الأعمال الكاملة، ص 249.
12. كمال أبو ديب، جديد الخفاء والتجلي، دط، دار العلم للملايين، بيروت 1981،ص10.
13. عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص 344.
14. الأعمال الكاملة، ص219-220.
15. فهد عاشور، التكرار في شعر محمود درويش، د ط، دار الفارس، عمان 2004،ص56
16. الأعمال الكاملة، ص345.

17. عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص 347.
18. أحمد الزمر، ظواهر أسلوبية في الشعر الحديث في اليمن، مركز عبادي، صنعاء، 1997، ص 254.
19. فهد عاشور، التكرار في شعر محمود درويش، ص 56.
20. الأعمال الكاملة، ص351.
21. موسى ربابعة، قراءات أسلوبية في الشعر الجاهلي، دار الكندي، إربد، عمان، 2001، ص 14.
22. المرجع نفسه، ص60.
23. الأعمال الكاملة، ص 183.
24. المصدر نفسه، ص279.
25. المصدر نفسه، ص 291.
26. أبو مراد فتحي، شعر أمل دنقل، دراسة أسلوبية، ص 96.
27. الأعمال الكاملة، ص 165.
28. المصدر السابق، ص 169.
29. المصدر السابق، ص 271 - 272
30. المصدر السابق، ص 324 – 325.
31. أحمد الشايب، الأسلوب، د ط، النهضة المصرية، القاهرة، ص 194.
32. المرجع نفسه، ص 127.